الدكتور
صالح الأشتر
أستاذ في كلية الآداب بجامعة دمشق

مأساة فلسطين وأثرها في الشعر المعاصر

« محاضرة عامة القيت في
مدرج جامعة دمشق في العاشر
من كانون الاول ١٩٦٠ »

مطبعة جامعة دمشق
١٣٨٠ هـ - ١٩٦١ م

الدكتور
صالح الأشتر
أستاذ في كلية الآداب بجامعة دمشق

مأساة فلسطين وأثرها في الشّعر المعاصر

« محاضرة عـــامة ألقيت في
مدرج جامعة دمشق في العاشر
من كانون الاول ١٩٦٠ »

مطبعة جامعة دمشق
١٣٨٠ هـ - ١٩٦١ م



هذه صفحات قليلة ، أقدّم فيها دراسة موجزة مركزة ، تلقي أضواء نافعة على مأساتنا القومية العظمى في فلسطين ، وتحاول أن تكشف عن أثر المأساة في الشعر العربي المعاصر .

وكنت أصدرت قبل شهرين كتاباً « في شعر النكبة » درست فيه هذا الشعر وخصائصه ، وجمعت فيه منتخبات من « ديوان النكبة » لعدد ضخم من الشعراء المعاصرين ، وقد أعانني هذا الكتاب على

تكثيف بحثي الحالي ، وزاد نظرتي إلى شعر المأساة تبلوراً وإحاطة ، ومن هنا تجيء محاضرة اليوم تكملة لكتابي ، وكل رجائي أن يكون الطريق الذي شققته في دراسة هذا الجانب البِكر من أدبنا المعاصر واضحَ المعالم، يثير عزيمة الباحثين لموالاة السير فيه، وتعميق الخطوط، فالنكبة الفلسطينية - دون ريب - هي العامل الرئيسي الفعّال في الأدب العربي المعاصر : شعره ونثره ، وكل بحث في أدب المأساة جهد مذكور ومحمود من جهتين : فهو يُسهم في غنى دراساتنا لأدبنا المعاصر من جهة، وهو يعين على يقظة ضميرنا القومي من جهة أخرى .

وبعدُ :

فقد لقي بحثي في شعر النكبة من الترحيب والتشجيع ما زاد إيماني بخطر الموضوع وقيمته ، فإذا استطاعت هذه الصفحات — مع الكتاب الذي تقدمها - أن تنحت لبنة صغيرة متواضعة في بناء يقظتنا القومية المعاصرة كان ذلك خير كسب لي ، وكنت به موفقاً وسعيداً.

صالح الأشتر

مأساة فلسطين وأثرها في الشعر المعاصر

أيها السادة

يحلو لي أن أعود دائماً إلى ذلك الفصل الممتع من مقدمة ابن خلدون [1] الذي يقرّر فيه أن للدولة ، كما للأشخاص ، أعماراً طبيعية ، ويرى أن عمر الدولة لا يعدو في الغالب ثلاثة أجيال من الناس : أما الجيل الأول فهم مؤسسو الدولة ، وكلهم عصبية لها ، فحدّهم مرهف ، وجانبهم مرهوب ، والناس لهم مغلوبون ! وأما الجيل الثاني فهم يميلون إلى الترف والكسل ، فتنكسر فيهم سَوْرة العصبية بعض الشيء ، حتى إذا جاء الجيل الثالث بلغ الترف فيهم غايته واستكانوا لغضارة العيش ولينه وأصبحوا عيالاً على الدولة وسقطت العصبية بالجملة فيهم ، فإذا هم غير قادرين على حماية الدولة من طمع الطامعين ، فيسلمونها بأيديهم إلى الانقراض !

هذه خلاصة ذلك الفصل المشهور من المقدمة وهو يحوي نظرة اجتماعية استقطرها ابن خلدون من دراسته تاريخ الدول التي قادت الأمة العربية وحكمتها خلال القرون إلى عصره ! ولقد تدبّرت نظرة ابن خلدون فرأيت أنها تظل

---

(١) – المقدمة : الفصل الرابع عشر

إلى اليوم صادقة مصيبة في خطوطها العريضة وهي أن من نواميس الحياة ألا تستطيع الدولة التي تبلغ ذروة المجد والحضارة الحفاظَ الدائم على أمجادها، فلا بدّ من أن تتسرَّب إليها عوامل الضعف والانحلال والتعفن، لتزحزحها عن الذروة، وتردَّها، هي والامةَ التي تسير في ركابها، إلى السفح، حيث يتوالى انحدارها شيئاً فشيئاً... وعلى السفح المنحدر تتوالى ليالٍ مظلمات من النكبات والأحداث، تلُف في أحشائها أشباحاً هزيلة، تتدافع نحو مصيرها الرهيب في خنوع واستسلام! ومن أعماق الظلمة تنطلق أصوات مبحوحة، تحاول عبثاً أن تهزّ النائمين لتفتح أعينهم على الخطر وتوقظَ فيهم العصبية لمجدهم الآفل وتغريهم بالصعود إلى الذروة من جديد!

تلك هي صرخة الأدب.. صرخة متمرّدة على حياة السفح والنوم والاستسلام، تهيب بالأمة «المنحدرة» أن تدرك ذاتها وتعيَ مصيرها، لتعاود الصعود إلى الذروة.

وكذلك ـ أيها السادة ـ عرفت أمتنا العربية، أمتُنا التي ذاقت دول كثيرة فيها خلال القرون حياةَ المجد في الذروة، عرفت فتراتٍ مظلمةً من حياة السفوح، وتاريخ تلك الفترات السود مجبول بالمآسي والأهوال والدموع، وأدبها هو أدب النكبات، وهو جانب ضخم من جوانب أدبنا العربي في القديم والحديث، ولا أدلّ على ضخامته من أن نذكّر بما قال الشعراء العرب في نكبتين اثنتين من نكباتنا الكثيرة خلال التاريخ وهما: مأساة الأندلس ومأساة فلسطين.

فأما مأساتنا في الأندلس فقد أغنت الأدب العربي بما قاله الشعراء في البكاء على المجد الضائع ورثاء الممالك المغصوبة، وهو شعر كثير يفصّل أسباب النكبة الأندلسية، ويحكي قصة العرب في إسبانيا وما كان جزاؤهم فيها بعد أن

أهدوا تربتها خير مايقدمه العقل النيّر واليد الصناع الى الأرض ! وفي موسوعة مؤرخ الأندلس المقّري[1] نجـد نماذج كثيرة لهذا الشعر الذي يسح بالآهات والعبرات والدموع ويعتصر منها أبلغ الدروس والعظات !

وأما مأساتنا في فلسطين فقد منحت الأدب العربي ديواناً دموياً ضخماً ، كتبت الحروب الصليبية صفحاته الأولى ، وهو لايزال إلى اليوم في تضخم مستمر ، وكلّما تضخّم الديوان ازدادت ملحمة الدم العربيةُ في فلسطين غنى واتساعاً ، وموضوع حديثنا الليلة هو مأساتنا هذه في فلسطين الشهيدة وأثرُها في الشعر العربي المعاصر

* * *

أيها السادة

يخيّل لي أحياناً أن الله – جلّ شأنه – عندما شاء لهذه البقعة المطهرة من أرض البشر أن تُنبت النبوات ، وأن تصدح في أجوائهـا أصداء الرسالات السماوية السامية ، شاء أن يجعل أُمتنا العربية مالكة لهذه الأرض المقدسة قوّامة عليها ، حامية لها ، وكتب – جلّت مشيئته – على أُمتنا أن تدفـع ثمن ذلك الامتياز العظيم بدلاً غالياً من حُرِّ دمهـا ، تسقي به تربة فلسطين الطاهرة ، من دمها المظلوم ، يريقه في كل مرة ذؤبان معتدون يُقبلون على فلسطين من أقاصي الأرض ، يسوقهم إليها تعصب أحمق أرعن ، وتغريهم بهـا مطامـع وشهوات ! وإن لم يكن ذلك ، فلِم تجمَّع المعتدون الصليبيون في أواخر القرن الخامس الهجري من كل طرف ، وغزوا أرضنا ، فدمَّروا الثغور والدروب ، وأحرقوا المساجد وهدموا الدور ، وأقاموا المجازر وأجروا أنهار الدم ؟ ولماذا ارتكبوا في القدس بعد استيلائهم عليها مايقشعر له من خجل ضمير التاريخ ! !

---

(١) – نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب للمقري

يقول المؤرخ الأوربي ميشو [١] : « ارتكب الصليبيون في فتح القدس ألواناً من التعصب الأعمى لم يسبق له من قبلُ نظير ! »

ويقول المؤرخ العربي ابن الأثير [٢] : « وورد المستنفرون من الشام (بعد فاجعة القدس) في رمضان إلى بغداد ، فأوردوا في الديوان كلاماً أبكى العيون وأوجع القلوب ، وقاموا في الجامع يوم الجمعة فاستغاثوا وبكوا وأبكوا وذكروا مادهم المسلمين بذلك (البلد) الشريف المعظم من قتل الرجال وسبي الحريم والأولاد ، ونهب الأموال ؛ فلشدة ماأصابهم – يعني أهل بغداد من حزنهم على إخوانهم في القدس – أفطروا ... »

لقد أراق الصليبيون الدم العربي المظلوم في فلسطين ، فهزّت نكبتها ضمير العالم الاسلامي ، وتفطّرت قلوب البغداديين وسالت دموعهم ، وارتعش وجدان الشعر العربي ، وانطلقت أولى قصائد النكبة في ملحمة الدم في فلسطين من فم الشاعر أبي المظفر الأبيوردي [٣] :

مزجنا دماءً بالدموع السواجمِ ... فلم يبق منا عُرضَةٌ للمَراجمِ
وشرّ سلاح المرء دمعٌ يُفيضه ... إذا الحرب شُبَّتْ نارُها بالصوارم
فإيهاً بني الإسلام ! إنّ وراءكم ... وقائعَ يُلحقن الذُرى بالمناسم
أتهويمةً في ظل أمنٍ وغبطة ... وعيشٍ كنُوّار الخميلةِ ناعم
وكيف تنام العين ملءَ جفونها ... على هَبَوَاتٍ أيقظت كلَّ نائم
وإخوانكم بالشام يُضحي مَقيلُهم ... ظهورَ المذاكي أو بطونَ القشاعم
يسومهمُ الروم الهوانَ وأنتمُ ... تجرّون ذيل الخفضِ فعلَ المُسالم

---

(١) – مجلة العالم الاسلامي ببغداد : السنة الاولى – الجزء ٥ و ٦ ص ٢٧٢
(٢) – الكامل في التاريخ : حوادث سنة ٩٢ ؛
(٣) – أوردها ابن الأثير في الكامل ولا نجدها في المختارات المطبوعة من ديوان الأبيوردي .

وكم من دماءٍ قد ابيحت ومن دمىً … تُواري حياءً حُسنها بالمعاصم
بحيثُ السيوفُ البيض محمرّةُ الظُبا … وسمرُ العوالي داميات اللهاذم
وبين اختلاسِ الطعن والضرب وقعةٌ … تظل لها الولدانُ شِيبَ القوادم
وتلك حروبٌ من يغِبْ عن غمارها … ليسلمَ يقرعْ بعدها سنّ نادم
أترضى صناديدُ الأعاريب بالأذى … ويُغضي على ذلٍّ كُماةُ الأعاجم
ويجتنبون النار خوفاً من الردى … ولا يحسُبون العارَ ضربةَ لازم
فليتهمُ إذ لم يذودوا حميةً … عن الدين ضنّوا غيرةً بالمحارم
وان زهدوا في الأجر إذ حمي الوغى … فهلاّ أتوه رغبةً في الغنائم
لئن أذعنت تلك الخياشيم للـبُرى … فلا عطسوا إلاّ بأجدعَ راغمِ!

وتوالت قصائد النكبة بعد صرخة الأبيوردي هذه ، وظلّت فلسطين تقاسي الأهوال ، ويسقي الدم المظلوم تربتها المقدسة ، وصبرت القدس على على المحنة قُرابةَ تسعين عاماً وهي تنتظر سيف الناصر صلاح الدين ، فلما لاح لها طيف القائد العظيم فوق بطاح حطين ، وارتدت إلى العرب أرضهم وكرامتهم ، وألقي بالذؤبان المعتدين إلى البحر ، فتطهرت من أرجاسهم أرض النبوات ، دوّى صوت الشعر بالفرحة العظمى ، بلسان الشاعر المصري ابن سناء الملك[1]:

لستُ أدري بأيّ فتحٍ تُهنّا … يا مُنيل الإسلام ما قد تمنّى
أنُهنيكَ إذ تملكت شاماً … أم نهنّيك إذ تملكت عدنا
قد ملكت الجنان قُطراً فقُطراً … إذ فتحت الشآم حصناً فحصنا
إنّ دين الإسلام منٌّ على الخلـ … ـق وأنت الذي على الدين منّا
لك مدح على السموات ينشا … ومحلٌّ فوق الأسنة يُبنى
قصدت نحوك الأعادي فرد الـ … ـلهُ ما أمّلوه عنك وعنّا

---

(١) - أدب الحروب الصليبية للدكتور عبد اللطيف حمزة : ١٣٣ .

قـد ملكت البلاد شرقاً وغرباً　　وحويت الآفاق سهلًا وحَزنا
واغتدى الوصف في ُعلاك حسيراً　　أيُّ لفظ ُيقال أو أيّ معنى ؟

ولكن مأساة فلسطين لن تنتهي عند هذا النصر العظيم ، فتربة فلسطين ستظل مشوقة إلى الدم العربي المظلوم ، والذؤبان المعتدون سيظلون من وراء البحار يتحيّنون الفرصة للعودة الى الأرض المقدسة ، فلنطو إذاً هذه الصفحة القديمة من ديوان النكبة ، ولنفتح صفحة جديدة لمأساة فلسطين في تاريخ العرب الحديث .

* * *

أيها السادة

لقد أقبل القرن العشرون والأمة العربيـة في سباتها العميق ، وكأنها استطابت حياة السفوح ، واستسلمت راضية الى نوم كالموت ، وهي تعلم أن من ورائها ذؤباناً لا ينامون الليل ، تؤرّقهم هذه المرة ُطماع ُ بالغة الخطر ، فهم يعلنون بلسان زعيمهم زنكويل « أن فلسطين وطن بلا شعب ! فيجب أن تعطى لشعب بلا وطن ! » . وهم يزعمون أن فلسطين أرضهم ، كانوا قبل آلاف السنين فيها ، وهم اليوم موعودون بالعودة اليها ، وغاية مزاعمهم أن يقتطعوا من الكيان الأرضي العربي الموروث قطعة غالية يقيمون عليها وطناً قومياً لهم !

وكذلك كان وعد بلفور – أيها السادة – للورد اليهودي روتشيلد سنة ١٩١٧ خاتمة جهود مسعورة لذؤبان الصهيونية العالمية ، ومنذ صدوره تعلّقت به آمال يهود العالم الهاربين من نقمة الشعوب ، وأصبحوا ينتظرون يوم الهجرة الى فلسطين !

وانتهت الحرب الكونية الأولى بنصر الحلفاء وغدرهم بالشريف حسين وثورته واقتسامهم مناطق النفوذ في العالم العربي ، واحتل الجيش الانكليزي فلسطين، وفي اليوم التالي لدخوله القدس وصلت إلى فلسطين اللجنة الصهيونية لدراسة الوضع فيها ، ومن ثَمَّ بدأت الآلة الصهيونية تدور : تجمع المال وتشتري الأرض وتقيم عليها المستعمرات لأفواج المهاجرين ، وبدأت الخيوط الأولى للمأساة الجديدة تبرز لكل عين ، غير أن العرب لم يكونوا إلى ذلك اليوم ليحسوا بالخطر الرهيب إحساساً كافياً ، فهم لا يزالون متفرقين شيعاً وأحزاباً تتناحر وتتعادى ، واليهود يتابعون تحصين المستعمرات ويستعدون للمعركة المقبلة ، وجاءت الحرب الكونية الثانية فأعانتهم على إنشاء المصانع الضخمة وتدريب فتيانهم وتسليحهم ، وكانت دعايتهم الهائلة المنظمة تبني لهم سنداً في كل بلد ، من رأي عام يعطف على تشريدهم في الأرض واضطهاد النازية لهم ، فلما انتهت الحرب ثانية بنصر الحلفاء أصبحت لفلسطين الشهيدة قضيةٌ معروضة على منظمة الامم المتحدة ومن ورائها أصابع أميركا والصهيونية ، وأدرك العرب أنهم مقبلون على المأساة ، ولم تستطع دولهم السبع وجامعتهم العربية أن تمنع اصدارَ القرار بتقسيم فلسطين ، وتشريد عربها ، ودوّى الرصاص من جديد في الأرض المقدسة ليسيل فيها الدم العربي المظلوم ! ودخل جيش الانقاذ العربي إلى فلسطين بقيادة هزيلة وجند خليط وسلاح مفلول فتوالت عليه الضربات ، وشنّ اليهود عدواناً وحشياً مقصوداً على دير ياسين فنشروا به الذعر والخوف ، وبهذا السلاح الماحق من الرعب الجماعي وانهيار الأعصاب أجلى اليهود العرب عن طبريا وحيفا ويافا وعشرات المدن والقرى ، وتدفق اللاجئون على البلاد العربية المجاورة والضفة الغربية من الأردن ، حتى إذا أقبل اليوم المحدد لانسحاب الجيش الانكليزي من فلسطين ، في الرابع عشر من أيار عام ١٩٤٨ ظهر للعالم أن مجتمع العصابات اليهودية في فلسطين أصبح دولة قائمة ،

وأن المجتمع العربي فيها بدأ يلفظ أنفاسه ويتحولُ الى قطعان مذعورة من الغرباء اللاجئين الهائمين على الدوب !

عند ذلك أعلنت الدول العربية السبع الحرب على اسرائيل ، وتخطت فرق قليلة من جيوشها حدود فلسطين للقيام بنزهة حربية في الأرض المقدسة ، ومرّ أسبوع وأسبوع والجيوش العربية تقتحم ما أقرّ التقسيم إبقاءه عربياً من الأرض الشهيدة ! كانت الجيوش العربية متفرقة متخاذلة ، قليلة العدد ، هزيلة الخبرة والتدريب والتنظيم والسلاح ، وأمامها عدو منظم مدرّب قد عبأ جميع قواه البشرية والمادية والعقلية والسياسية ، وفي يده أحدث الأسلحة وأمضاها ؛ ولهذا كان على الدول العربية أن تقبل الهدنة الأولى لمدة شهر تمكن اليهود خلاله من تعزيز قواهم ، والعربُ سادرون في خلافاتهم ، فلما عادت الحرب برز الخلاف في الجبهة العربية للعيان ، وانسحب الجيش الأردني من اللد والرملة ، وتبعه الجيش العراقي ، وخلا الميدان أمام القوات الاسرائيلية فاحتلت بيسر عدة مدن ومئات القرى ومساحاتٍ واسعةً من الأرض العربية ، وهرب السكان على وجوههم هائمين ، وقد باغتهم العدو في دورهم وخلّفوا في أرضهم كل ما يملكون ، وارتفع عدد اللاجئين في البلاد العربية عشرات الآلاف .

وقبلت الدول العربيـة قرار مجلس الأمن بالهدنة الثانية ، وتفاقم الخلاف بين الحكومات العربية ، وانتهى بإعلان حكومة عموم فلسطين في غزة لتقف أمام أطماع الملك عبد الله ، فردّ الملك بإعلان ضم الضفـة الغربية من الأردن إلى الشرقية ، وفاز بذلك من الغنيمة بنصيب الأسد !

ومضت أيام الهدنة الثانية والحكومات العربية ماضية في تناحرها وشقاقها ، واغتنم اليهود الفرصة فجمّعوا قُواهم وهاجموا بها الجيش المصري ، وتمكنوا من محاصرة فرقة كبيرة منه في الفالوجة ! وكذلك شاء ربك أن يكون ، بين الجند المحاصَرين ضابط عربي شجاع ، هيأته عناية الله لدور حاسم في المأساة ،

وهناك في قلب المعركة والحصار التقى جمال عبد الناصر بتلك الفئة المؤمنة من الأبطال الأحرار الثائرين الذين جرت دماؤهم المظلومة على تربة فلسطين، فهاجت في قلوبهم الثورة على الظالمين، ولمّا عاد المحاصَرون الى القاهرة اندلعت من قلوبهم شرارة الثورة فأطاحت بالعروش وأذنابها فكانت الصفحة الأولى من انتقام الشعب العربي لكرامته المهدورة !

أما التمثيلية الحربية في فلسطين فقد انتهت بأن عقدت كل حكومة عربية الهدنة المنفردة مع إسرائيل ، صاغرة ذليلة ، ثم راحت تتنصّل من جريمتها في المأساة ، وتحمّل الأخرى مسئولية النكبة والإنكسار والهزيمة ، وتخدّر شعبها بالتهديد بالجولة الثانية !

ومَّرت السنون حتى جاوزت العشر ، مَّرت ثقيلة بطيئة الخطا ، وجيل المأساة ينتظر الفجر الموعود ، ويتلهف إلى خيال القائد المظفر لجيش العروبة الموحّد ، ويترقب انطلاقة الصيحة الرائعة من فمه إيذاناً بالزحف العربي المقدس !

* * *

أيها السادة

هذه الخطوط العريضة لمأساة فلسطين في عصرنا الحديث عشناها ، أو عاشها أكثرنا بكل دفقة من دمائه وبكل رجفة من أعصابه ، وإنما بسطتها لأن الشعر العربي المعاصر عاشها أيضاً بكل جزئياتها ، وقد استخلصت في كتابي (في شعر النكبة[1]) حكاية المأساة من جذورها إلى اليوم ، من الشعر المعاصر ، وبذلك يتضح لنا أن ديوان النكبة في تضخم مستمر ، وأن ملحمة الدم في فلسطين مازالت إلى اليوم بدون نهاية !

سأقف الآن بكم عند هذه الحكاية الشعرية لمأساة فلسطين الحديثة لندرس

---

(١) – في شعر النكبة   مطبعة جامعة دمشق – ١٩٦٠

ما لهذه المأساة من أثر في الشعر العربي المعاصر ، ولكي أضمّ جوانب البحث سأحاول تكشيفه في نقاط التأثير الخمس التالية :

١ً - مأساة فلسطين قدّمت للشعر المعاصر زاداً لاينفَد

لاريب في أن مأساة فلسطين هي أعظم تجربة يعانيها الأدب العربي المعاصر ، فقد هزّت أهوالها ضمائر الشعراء العرب في كل قطر عربي ، وأنطقتهم بشعر غزير ، وأوحت إليهم بصور شعرية لانهاية لها ، وكيف تنتهي صور المأساة مادام هناك مليون من المشرّدين على الدروب ، في كل بلد عربي ، تروي وجوههم الشاحبة وأجسامهم المعلولة قصة الجريمة العظمى لكل عين ، وتذكّر كلّ ذي وجدان بعمق المأساة ووحشيتها ، ومن هنا لم يكن شعراء فلسطين وحدهم في مناحة النكبة ، فالمأساة قومية جامعة ، ويندر أن نجد شاعراً عربياً في أي قُطر من أقطار العروبة لم يسهم في البكاء على البلد العربي الشهيد ، أو في مواساة المنكوبين ، أو في بث روح الصبر والمقاومة والعزيمة للنضال من جديد والاستعداد للجولة الثانية ، ولقد وعى الشعراء العرب جميعاً أن وراء المأساة في فلسطين عدواً مشتركاً تعرف البلاد العربية كلها غدره وويلاته ، فازدادوا عنفاً في مهاجمته ، وكشفوا عن وجهه القناع ، وفضحوا الصلة التي تجمع بين الاستعمار والصهيونية ، فما اسرائيل غيرُ مخلب للاستعمار ، يهدد به أمن العرب ، ليقضيَ على كل حركة تحررية فيهم ، ويضمن بذلك حماية ما بقي له من مرافقَ ومصالحَ في جوانبَ من أرض العرب !

غير أن الاستعمار لم يكن وحده السرّ في مأساة فلسطين ، فهناك الغدر والخيانة والمطامع والأهواء والشهوات التي كانت تعصف في رؤوس عدد من الملوك والرؤساء ، وقد تصدى شعراء النكبة لهؤلاء ، وفضحوا دورهم القذر في المأساة ، وكشفوا عن جرائمهم وصبوا عليهم اللعنات ..

وإلى جانب هذه الصفحات السود من الخيانة والخزي تضم المأساة صفحات رائعة من البطولات والتضحيات ، وبذلك كله قدّمت مأساة فلسطين للشعر العربي المعاصر زاداً لاينفد ، ووضعت بين يديه مادة للقول غزيرة لاتنضُب مهما امتد عمر المأساة، وإليكم ديوان النكبة : فبين ما كان يقوله ابراهيم طوقان قبل التقسيم بعشر سنين :

أمامك أيها العربي يومٌ   تَشيب لهوله سودُ النواصي
وأنت كما عهدتك لاتبالي   بغير مظاهر العبث الرخاص
مصيرك بات يلمُسه الأداني   وسار حديثه بين الأقاصي
فلا رحب القصور غداً بباقٍ   لساكنها ولا ضيق الخصاص

وما يقوله أبو سلمى بعد التقسيم بعشر سنين :

يافلسطين مضت عشرٌ وفي   كلّ يومٍ يسمع الدهر ندانا
وأنينا واللظى يحرُقنا   عرباً : قلباً ووجها ولسانا
يا أحبّاي مضت عشر ولم   تلثِم التُربَ المفدّى شفتانا
وشظايانا اللواتي وحّدت   بين أهلينا ولم يبق سوانا

بين هاتين الصفحتين من ديوان النكبة شعر كثير يفصّل أسباب المأساة ويتتبع أحداثها ويصوّر أبعادها الواقعيةَ والوجدانية ، ومازالت المأساة إلى اليوم تقدم للشعر مادة جديدة !

٢ً — مأساة فلسطين أغنت العنصر العاطفي في الشعر المعاصر

أثارت مأساة فلسطين بأهوالها وويلاتها وجدانَ الشعر المعاصر ، فانطلقت قصائد النكبة مغمسة بالألم والدموع تصوّر بؤس المنكوبين وشقاءهم وضياعهم وضلالهم ، وتقف أمام خيام اللاجئين لتقصّ قصة العربي التائه !

لقد انتهى دور اليهودي التائه منذ أصبح له في إسرائيل وطن قومي يحميه ، وبيت يظله ويؤويه ، وأرض تطعمه من خيراتها وتغنيه ، وهام العربي على وجهه ، بلا وطن ولا بيت ولا أرض ، يلوب في الدروب ، حافياً عارياً جائعاً ، ينتظر من الشعوب فضلات الإحسان ليسد بها رمقه ، وهو الذي خلّف في وطنه السليب مئات الملايين من الجنيهات ! حتى إذا أقبل عليه الليل أوى إلى تلك الخيمة السوداء التي أصبحت رمزاً كريهاً للنكبة (١) ، ففي قلب هذه الخيمة ألوان كافرة من البؤس والشقاء، من جوع وعري وبرد ، وقمل وسلّ وموت !

انها « خيمة البهتان » كما يسميها الشاعر المبدع محمود حسن اسماعيل :

هنا في خيمة البهتان والطغيان والزورِ
لدى مأوى كلحد الميت في النسيان محفورِ

* * *

هنا في كبوة الأقدار بين السيل والويلِ
وبين عواء شيطانٍ طريدِ الجنّ مختلِّ
يقعقع للرعود السود مأخوذاً من الهول
سمعتُ فحيح ثعبانٍ على رئتي منسلّ
تدفّق جسمه المقرور بين حفائر السُلّ
وبين شتاء بستان بدفء الموت مخضلّ !

ومن هذه الخيمة والشقاء الرابض في جوفها استعار كثيرٌ من الشعراء المعاصرين مادة شعرية لدواوين كاملة ، حتى أصبح للخيمة في الأدب المعاصر أثر بعيد المدى ، ولقد أسهم شعراء العالم العربي في أدب الخيمة إلى جانب شعراء فلسطين لأن خيام اللاجئين منثورة « تحت كل كوكب » في بلاد العرب ،

(١) .. في شعر النكبة : ٧ :

كما يقول أبو سلمى ، ومنها يزحف بؤس ضارٍ يُدمي القلب ويُبكي العين ويحرك لسان كل شاعر .

ولقد صوّر الشعر المعاصر المخاض النفسي العنيف الذي عاناه العرب في مختلف أطوار المأساة ، فإذا جئنا إلى شعر النكبة بعد التقسيم والمعركة الهازلة وجدناه يموج بالقلق والحيرَة والشك ، وهو بذلك صورة صادقة للنفس العربية الجريحة الكبرياء عندما صدمتها الهزيمة ففجّرت ثورة غضبها ويأسها وانهيارها ، وأشعلت براكين حقدها على الجناة ثم استكانت الى كآبة حزينة قاتمة ، إلى أن أشرق طور جديد إثر الانفجارات الشعبية في أطراف من العالم العربي ، فتنسّم شعر المأساة روح التطلع والتفاؤل والأمل ، وراح يصوّر النفس العربية وقد عادت إليها الثقة وارتدّ الإيمان بذاتها إليها ، فانتصبت كالعملاق من جديد ، تتحدى كل مغتصب ، وتستعد للثأر واستعادة الوطن المغصوب .

والذي يزيد غنى العنصر العاطفي الوجداني في الشعر المعاصر اندفاعُ تلك تلك الثورة العارمة من الحنين إلى الأرض السليبة في قلوب شعراء فلسطين ، فهذا أبو سلمى يحن إلى داره في فلسطين وما خلّف فيها من حلو الذكريات :

داري التي أغفت على ربوةٍ   حالمة بالمجد والغارِ
تفتّح الزهر على خدها   فعطّرت أيام آذار
والتينةُ الخضراء في ظلها   تاريخ أشواقي وآثاري
والعين خلف الدار في المنحنى   تروي حكاياتي وأخباري

وهذا حسن البحيري يتنسّم أنفاس وطنه المغصوب في أريج الزهر :

سألت ذاتُ حنين أختها   والدجى يعقِد أجفان الوسن
وصدى النجوى على أفق الربا   يزفير اللهفة في ليل الشجن
أختِ ما سرّ الشذى من زنبقٍ   حيّر الأدمع في جفن الزمن

فأجابتها بلحن شاردٍ رنّ فاهتز له عطف الفنن :
يا ابنة الأيك ويا أخت الشجى أرج الزنبق أنفاس الوطن !

والحق أن شعراء فلسطين غنوا أصدق ألحان المأساة وأعمقها عاطفة لأنهم صدروا فيها عن التجربة التي عاشوها بأنفسهم والمآسي التي رأوها بأعينهم ، غير أننا يجب أن نلاحظ أن غنى العنصر الإنفعالي وطغى بتضخمه على العنصر الفكري في شعر المأساة فبدا هزيلاً فقيراً ، ذلك أن شعراء النكبة لم يستطيعوا أن يعكسوا المعنى الايجابي للمأساة القومية الكبرى ، المعنى البنّاءَ الذي يحدّد الهدف ويرسم الطريق ، كما أنهم لم يُعنوا بتزويد الضمير العربي بالسند الجدلي لحق الأمة العربية في فلسطين وبطلانِ مزاعم الصهيونية فيها ، ولا تقولوا إن هذه النقطة الأخيرة ليست من وظيفة الشعر ، ذلك أن هنالك شاعراً واحداً -فيما أعلم- انتبه إلى هذه الثغرة في شعر المأساة وحاول أن يسدّها ، وهو شاعر مهجري ، ولعله استطاع أن ينجو بشعره من طغيان العنصر العاطفي لأنه كان بعيداً عن المأساة في مُهاجَره ، فتمكن من الموازنة بين العاطفة والفكر في بكائه للمأساة ! يقول إيليا أبو ماضي :

ديارُ السلام وأرضُ الهنا يشُقّ على الكل أن تحزنا
فخطب فلسطينَ خطب العُلا وما كان رزء العلا هيّنا
سهرنا له فكأن السيوف تحزُّ بأكبادنا ههنا
وكيف يزور الكرى أعيناً ترى حولها للردى أعينا
وكيف تطيب الحياة لقومٍ تُسد عليهم دروبُ المنى
بلادهمُ عُرضة للضّياع وأمتهم عُرضة للفنا
يريد اليهود بأن يصلبوها وتأبى فلسطين أن تُذعنا
وتأبى المروءة في أهلها وتأبى السيوف وتأبى القنا
أأرضُ الخيال وآياته وذاتُ الجلال وذاتُ السنا

تصير لغوغائهم مسرحاً وتغدو لشذاذهم مسكنا !
فقل لليهود وأشياعهم لقد خدعتكم بروق المنى
ألا ليت (بلفورَ) أعطاكمُ بلاداً له لا بلاداً لنا
فلندنُ أرحب من قدسنا وأنتم أحبُ إلى لندُنا
فليست فلسطينُ أرضاً مَشاعاً فتُعطى لمن شاء أن يسكنا
فإن تطلبوها بسُمر القنا نردّكمُ بطوال القنا
ففي العربي صفاتُ الأنام سوى أن يخاف وأن يجبُنا
وإن تحجُلوا بيننا بالخِداع فلن تخدعوا رجلاً مؤمنا
وإن تهجروها فذلك أولى فإن فلسطين مُلكٌ لنا
وكانت لأجدادنا قبلنا وتبقى لأحفادنا بعدنا
وإنّ لكم بسواها غنىً وليس لنا بسواها غنى
فلا تحسبوها لكم موطناً فلم تك يوماً لكم موطنا

٣ً – مأساة فلسطين نفخت في الأدب المعاصر روح التمرد والانطلاق والثورة

كانت النكبة في فلسطين نقطة الانعطاف الكبرى في يقظة العرب الحديثة، فقد أيقظت المأساة أمتنا العربية على الخطر ، وأظهرتها على حقيقة صارخة وهي أن الذين خاضوا معركة النكبة لم يكونوا يحسون إحساساً كافياً بالولاء للأرض العربية والوطن العربي وكرامة الأمة العربية ، فكانوا الأداة المسخرة لهزيمة أمتهم بملايينها أمام حفنة من شذاذ الآفاق لا يبلغون المليون ، وجعلوا من الحرب الفلسطينية (مهزلة عربية) كما يسميها الشاعر الفلسطيني محمود الحوت ، ومرّغوا بخياناتهم تاريخ العرب الحديث، وجلّلوه بالعار والذل ، وقد نفخت هذه الحقيقة روح التمرّد والثورة في أعماق جيل النكبة ، وعكس الأدب المعاصر هذه الروح المتمردة الثائرة المنطلقة ، فتدفقت النقمة في شعر المأساة تؤج كالنار ، وها هي ذى تلتهب في شعر يوسف الخطيب :

أنا مشعل أنا مارجٌ جبَّارُ لا الريح تُخمدني ولا الإعصار
سأمدّ في الآفاق ألسنة اللظى حمراً لها في الخافقين أوار
ولأحرُقنَّ الليل حتى تنجلي أسدافه فتوقّدي يا نارُ
للميتين دموعهم وجراحهم ولجذوتي ساحُ الوغى والثار
ولسوف أغسل جبهتي حتى تُرى مثل الضحى ويذوب عنها العار
أنا للحياة وإن أظل مشرداً أقمت لا أرضى ولا أختار
ومشيئتي قدرٌ على أقدامه تتمسّح الأيام والأقدار
لو شئت جمّعت النجوم مشاعلا ودفقت منها الموت حين أثار
وذروت في القطبين أرياح الردى فالأرض من بعدى لظى ودمار
أنا مجرمٌ أنا حاقد ، أنا سيء حتى تعود إلى ذويها الدار

وفي الشعر المعاصر حملات على الذين قادوا معركة النكبة إلى الهزيمة ، وفي طليعتهم زمرة الملوك والحكام والرؤساء ، ولقد كانت ثورة شعراء المأساة على خياناتهم شعواء حقاً ، وإليكم نماذج منها :

يقول أبو سلمى وهو يسبق هنا سائر شعراء النكبة :

يا رفاق الدهر هل شرّدكم في الورى غدر عدو أم محب
زعماءٌ دنّسوا تاريخكم وملوك شردوكم دون ذنب
وجيوش غفر الله لها سلمت أوطانكم من غير حرب
دولٌ تحسبها شرقيةً وإذا أمعنتَ فالحاكم غربي

ويقول عيسى الناعوري :

هم أسلموكِ إلى العدوّ فمرّغوا بالعار كلّ كرامة وإباءِ
بل مرّغوا تاريخ يعرب كلّه بمذلةٍ لا تنتهي نكراء
زمرٌ تعيش على الخيانة مثلما عاش البعوض على خبيث الماء

ويقول عمر أبو ريشة :

أمتي ! كم غصةٍ دامية ... خنقت نجوى علاكِ في فمي
كيف أغضيت على الذل ولم ... تنفضي عنك غبار التهم
فيم أقدمتِ وأحجمت ولم ... يشتف الثأر ولم تنتقمي
اسمعي نوح الحزانى واطربي ... وانظري دمع اليتامى وابسمي
واتركي الجرحى تداوي جرحها ... وامنعي عنها كريم البلسم
ودعي القادة في أهوائها ... تتفانى في خسيس المغنم
رب « وامعتصماه » انطلقت ... ملء أفواه البنات اليتّم
لامست أسماعهم لكنها ... لم تُلامس نخوة المعتصم

ومن وراء البحار ، من المهجر يقذف الياس فرحات هذا الحجر ليرجم به أصحاب الجلالة والسمّو :

أشبابَ يعرُبَ قم فنحن هنا ... نلقى بملءِ صدورنا المحِنَا
لم نمح عاراً تحت وطأته ... كادت تمس جباهُنا الدمنا
لولا رجاء النازحين عن الـ ... أوطان فيك لأنكروا الوطنا
وإذا لقيت ذوي الجلالة من ... ساداتنا المتحكمين بنا
وذوي السمو وكلّ ذي لقب ... خاوٍ كصاحبه قليلِ غنى
فاهزأ بألقابٍ لهم سمنت ... وكرامةٍ هُزلت أسىً وضنى
ديست بأقدام اليهود فيا ... شمَّ الأنوف استنشقوا الدرنا
أمهدّمين بسوء دخلتهم ... يومَ الكريهة ماصلاحُ بنى
ذُقوا وغنوا في مآتمنا ... لكم البداءة والختامُ لنا

وفي الشعر المعاصر حملات ضارية على الاستعمار والمستعمرين ، لأنّ

الاستعمار كما قدمنا من أهم عوامل المأساة ، ولهذا يقول هارون هاشم رشيد :

لولا خداع الانكليز وغدرهم ماعاث في أرض الأسود كلابُ
والغربُ ! ياللغرب إن قدومه نحو البلاد مصيبة وخراب
هو أخطبوط فاجرٌ مستعمرٌ في كل ناحيةٍ له أذنابُ

ومن مظاهر التمرد والثورة في الشعر المعاصر انصرافه إلى الشعب والايمان به وبإمكاناته وعقده الآمال للخلاص على يديه . يقول كمال ناصر :

أنا الشعب فلتسمعي ياذُرا نشيدي يدوّي بسمع الفضاءْ
أمدّ جناحيَّ عبر الجراح فمن كبرياءٍ إلى كبرياء
أنا الشعب ياحفنة المرجفين نداء الخلود وسرّ البقاء
على مقلتيّ مصيرُ الوجود وفي وجنتيَّ مصير القضاء

وتدفع الثورة أحد شعراء النكبة ـ خليل زقطان ـ إلى المبالغة والمغالاة فيؤله الشعب :

فليقرأوا فوق الجبا ه الغرّ فلسفة العصاه
صوراً من الإصرار تُعـ لن أنّما الشعب الاله

٤ ـ مأساة فلسطين دفعت الشعراء المعاصرين الى التطوّر والتجديد والحياة

يعاني الشعر العربي اليوم ثورة جامحة على التقاليد الشعرية القديمة في الشكل والمضمون ، ويواجه تجارب كثيرة لوضع تقاليد جديدة للشعر العربي ، وهكذا نجد في الشعر المعاصر مشكلة جديدة هي مشكلة « الشعر الجديد » أو « الشعر الحر » كما يسمونه وهو «يقوم على وحدة التفعيلة في القصيدة ، وتنويع عدد التفعيلات في كل بيت تنويعاً يوافق انسياب المعاني ، وتوزيعِ الموجات العاطفية

توزيعاً موسيقياً ملائماً، واعتبار القافية عنصراً عفوياً، غيرَ ملتزم ولا متعمَّد[1]»
هذا من حيث الصياغة الشكلية ، أما من حيث المضمون :فالشعر الجديد يُمدِّد التجربة ويبسّطها، ويُعنى بإيراد الجزئيات الصغيرة التي تتجمع ظلالها فتزيد التعبير الشعري عن التجربة عمقاً ووضوحاً وأصالة ؛ ثم إن الشعر الجديد يسعى إلى أن يكون صادقاً في تمثيل الجانب الانفعالي من الحياة ، والى ان يعبر عن وقع الوجود وأحداثه على الوجدان دونما طلاء أو زيف .

إن الشعر الجديد انقلاب ثوري على شعرنا التقليدي ،ولكي يتضح التعريف الذي قدّمته أضرب لكم مثلا من الشعر الحر الجديد الذي نظمته مأساة فلسطين بلسان الشاعر نزار القباني ، وهي قصيدة جميلة سماها الشاعر « قصــــة راشيل شوارزنبرغ » وقدَّمها للأجيال العربية المقبلة وأعلن فيها الثوره على الجيل الذي أسهم في ضياع فلسطين ، وليت شاعرنا نزاراً ينفق طاقته الشعرية دائماً في مثل هذه الموضوعات :

أكتبُ للصغارْ
للعرب الصغار حيث يوجدونْ
لهم على اختلاف اللون والأعمار والعيون
أكتب للذين سوف يولدون
لهم أنا أكتب للصغارْ
لأعينٍ يركض في أحداقها النهارْ
أكتب باختصارْ
قصةَ إرهابيةٍ مجنّده
يدعونها « راشيلْ »
قضت سنين الحرب في زنزانةٍ منفرده

(١) - انظر « في شعر النكبة ، ص٨٩ - ٩٣

كالجرذِ .. في زنزانةٍ منفرده
شيَّدها الألمان في براغْ
كان أبوها قذراً من أقذر اليهودْ
يزّورُ النقود ،
وهي تُديرُ منزلاً للفُحش في براغْ
يقصده الجنودْ ..
وآلت الحربُ إلى ختامْ
وأعلن السلامْ
ووقّع الكبارْ
أربعةٌ يلقّبون نفسهم كبارْ
صكَّ وجود الأمة المتحدهْ
... وأبحرت من شرق أوربا مع الصباحْ
سفينةٌ تلعنها الرياحْ
وجهتها الجنوبْ
تغص بالجرذان والطاعون واليهود
كانوا خليطاً من سقاطة الشعوب
من غرب بولندا
من النمسا
من استمبول .. من براغْ
من آخر الأرض .. من السعيرْ
جاءوا إلى موطننا الصغير
موطننا المسالم الصغير
فلطخوا ترابنا
وأعدموا نساءنا

ويتموا أطفالنا
ولا تزال الأمم المتحده
ولم يزل ميثاقها الخطيرْ
يبحث في حرية الشعوب
وحقِ تقريرِ المصير
والمثلِ المجردهْ
فليذكرِ الصغارْ
العربُ الصغار حيث يوجدونْ
من ولدوا منهم ومن سيولدون
قصة إرهابية مجنده
يدعونها « واشيل »
حلّت محلَّ أميَ الممدّدهْ
في أرض بيّارتنا الخضراء في الخليلْ
أمي أنا الذبيحة المُستشهِده
وليذكرِ الصغارْ
حكايةَ الأرض التي ضيّعها الكبارْ
والأممُ المتحدهْ

* * *

أكتب للصغارْ
قصة بئر السبع واللطرون والجليلْ
وأختيَ القتيلْ
هناك ، في بيّارة الليمون ، أختيَ القتيلْ
هل يذكر الليمون في الرملة ، في اللد ، وفي الخليل
أختي التي علّقها اليهود في الأصيل

من شعرها الطويل
أختي أنا نُوارْ
أختي أنا المتيكةَ الإزارْ
على رُبا الرملةِ والجليلْ
أختي التي مازال جرحها الطليلْ
مازال بانتظارْ
نهارَ ثارٍ واحداً ، نهار ثارْ
على يدِ الصغارْ
جيلٍ فدائيٍ من الصغارْ
يعرفُ عن نُوارْ
وشعرِها الطويلْ
وقبرِها الضائع في القفارْ
أكثرَ مما يعرفُ الكبارْ !

* * *

أكتب للصغارْ
أكتب عن يافا وعن مرفئها القديمْ
عن بقعةٍ غالية الحجارْ
يُضيء برتقالها كخيمةِ النجومْ
تضمّ قبر والدي وإخوتي الصغارْ
هل تعرفون والدي وإخوتي الصغارْ
إذ كان في يافا لنا حديقةٌ ودارْ
يلفّها النعيم ،
وكان والدي الرحيمْ
مزارعاً شيخاً يحب الشمسَ والترابْ

والله َ والزيتون والكروم
كان يحب زوجه ُ
وبيتَه ُ
والشجر َالمثقل بالنجوم ْ
. . . وجاء أغراب ٌ مع الغياب ْ
من شرق ِ اوربا .. ومن غياهب السجون ْ
جاءوا كفوج ٍ جائع ٍ من الذئاب ْ
فأتلفوا الثمار ْ
وكسّروا الغصون ْ
وأشعلوا النيران َ في بيادر النجوم ْ
والخمسة ُ الأطفال ُ في وجوم ْ
والليل ُ في وجوم ْ
واشتعلت في والدي كرامة ُ التراب ْ
فصاح فيهم : اذهبوا إلى الجحيم ْ
لن تسلُبوا أرضي ياسلالة الكلاب ْ
. . . ومات والدي الرحيم ْ
بطلقة سددها كلب ٌ من الكلاب ْ
عليه ، مات والدي العظيم ْ
في الموطن العظيم ْ
وكفه مشدودة شداً إلى التراب ْ
فليذكر الصغار ْ
العرب ُ الصغار حيث يوجدون ْ
من وُلدوا منهم ومن سيولدون ْ
ماقيمة التراب ْ

لأن في انتظارهمْ
معركةَ التراب . . ! »

هذا نموذج من الشعر الجديد ، نموذج كامل لم أحذف منه شيئاً ، لكي تلمسوا فيه سعةَ دائرة التجربة وتبسيطَها والعنايةَ بالجزئيات التي تتلاقى فتزيد التجربة عمقاً ووضوحاً ؛ والشعر الجديد يملأُ اليوم صحفنا ومجلاتنا، ويهتم النقاد بدراسته ورصد أسبابه ، فيقول بعضهم إنه امتداد للرعشة العنيفة التي هزّت كيان الشعر العالمي كلـه من جراء تطور المفاهيم ، وانجرف الشعر العربي المعاصر في هذا التيار ! والحق أن وراء الشعر الجديد دوافعَ كثيرة أخرى معقدة ، منها تلك الشعوبية الماكرة المقنعة بستار التجديد والتحرر والانطلاق ، وتحت قناعها حقدٌ على التقاليد العربية أية كانت ، واندفاعٌ ضارٍ نحو تحطيم كل عقيدة؛ ومن الدوافع أيضاً غرور بعض الناشئين من الشعراء ، يُعجزهم إقامة الوزن وإخضاعُ القافية ، فيختصرون الطريق ، ويتمردون على القيود ، ويصيرون إلى الشعر الحر ، وهؤلاء المراهقون من الشعراء بحاجة الى عصا ناقد صارم ، يعلّمهم أنّ وراء كل أثر فني ناجح موهبةً صامتةً عاملة ، وتضحية لاحد لها من سهر وعرقٍ ودمعٍ وصبر !

غير أنّ أهم دافع – في اعتقادي – لهذا الانقلاب الثوري في الشعر المعاصر ينبُع من مأساة فلسطين ، ذلك أن الهزيمة في فلسطين كانت صدمة عنيفة طاش في أعقابها العقل العربي ، فاختلت موازين القيم أمام عينيه ، وتفجرت في اللاشعور نقمة مسعورة تستهين بكل القيم وتتحداها ، فالثورة على التقاليد الشعرية صورة للقلق النفسي والشك والحيرة والرغبة في التغيير والاندفاع نحو التحرر ، والاشمئزاز من الماضي والحاضر .. صورة للهزة الرهيبة التي كادت تحطم الضمير العربي في أعقاب الهزيمة !

إن الشعر الجديد أثر من آثار مأساة فلسطين في الشعر المعاصر ، وهو تجربة

لاضير منها ، واذا قادها الوعي الفني والقومي والانساني بعمق وموهبة واصالة أعطت نماذج ناجحة ، وكان لها أثرها البعيد في مستقبل الصياغة الشعرية وفي تطوير الشعر العربي الحديث كله ..

لقد خرج الشعر الجديد من أعقاب معركة فلسطين ليخوض بنفسه معركة النقد للحكم على صلاحه ، ومعركة النقد قائمة أبداً بين المحافظين والمجددين–وهي استمرار طبيعي للمعركة النقدية القديمة التي لاحياة للأدب بدونها – وعلى رأس المحافظين الاستاذ عباس محمود العقاد الذي يرفض أن يسمى الشعر الجديد شعراً ، والى جانبه الشاعر المحافظ عزيز أباظة الذي يسمي الشعر الجديد «هذيان المحمومين» ! وأما المجددون فيعلنون أن الشعر الجديد هو « ثورة تجعل من عصرنا عصراً شعرياً ذهبياً ! » كما يقول الشاعر المجدد صلاح الدين عبدالصبور ، ويدعم هؤلاء نقاد متفائلون في مقدمتهم الدكتور محمد مندور الذي يدعو الناقمين المتشائمين إلى أن يبذلوا محاولات مخلصة لفهم الشعر الجديد واستنباط مواطن الجمال فيه .

٥ً – مأساة فلسطين غلّبت على الشعر المعاصر الاتجاه الالتزامي الهادف

في اعتقادي أيضاً أن مأساة فلسطين هي أكبر عامل في اثارة الدعوة إلى الالتزام في الأدب في العالم العربي ، وفي تغليب الاتجاه الهادف على الشعر المعاصر ، وذلك لسببين :

أولهما أن مأساة فلسطين قدّمت للشعراء مادة واقعية غنية ، وشغلت بويلاتها وأهوالها الضمير العربي ، فانطلقت الصرخة من أعماقه داعية إلى مطاوعة الأدب الحديث لواقع الأمة العربية المرير ، ليعيش الأدب تجربة الأمة ويكون الاديب صاحب رسالة يملأ مضمونه الشعري أو النثريّ منها ، لا من ذاكرته ولا من خياله ، فيربط بذلك بين انتاجه والحياة الاجتماعية التي يحياها .

وثانيهما أن مأساة فلسطين ودور الاستعمار الغربي فيها دفعت أمتنا العربية

إلى التحرر من سيطرة الغرب والعمل على التخلص من احتكاره لنا في الميادين كلها ، ومنها ميدان الثقافة ، وهكذا تكون مأساة فلسطين هي التي دفعتنا إلى أن نفتح كوة على ثقافة العالم الاشتراكي ، وهي ثقافة تقول بالتزام الفنان بخدمة مجتمعه ، وتنكر عليه الحق في الانعزال و (البرجعاجية) ، ومن هذه الكوة الجديدة هبت علينا مفاهيم لاتعرفها الثقافة الغربية التي كانت مسيطرة علينا وكنا نسير في ركابها ، فثقافة الغرب تنزع بوجه عام إلى منح الفنان نهاية الاستقلال الفردي ، وقد يصل الأمر ببعض مدارسها إلى تحرير الأديب من كل مسئولية اجتماعية ..

ومهما يكن فإن الدعوة إلى الالتزام أثيرت في العالم العربي في أعقاب الهزيمة ، وشغلت — ومازال — الأوساط الفكرية فيه ، والنقاد أيضاً فريقان أمامها : فريق مؤيد يحث الكتاب والشعراء على اقتراض مادتهم من صميم الواقع العربي ، ويطالبهم بأن يلتزموا في معالجتها برأي محدد في شجاعة وإصرار ؛ وفريق معارض يسخر من الدعوة إلى الالتزام والأدب الهادف ويسميه الأدب الهاتف ، ويعني أن الأديب الملتزم آلة مطواع يُردد كالببغاء مايُراد منه ، وبذلك تضيع حرية الأديب ، ويأتي أدبه زائفاً مكذوباً به على الحياة - كما يقول محمود تيمور - لأنه وليد الفرض والإملاء والإلزام .

والحق أن أمتنا العربية تعيش منذ الكارثة تجربة قاسية ، وهي مازال عاكفة على مأساتها ، تدرس أخطاءها وترسم لنفسها سبيل الخلاص لوضع نهاية مشرفة للنكبة ، والأدب مدعو إلى أن يُسهم ويشارك فيؤدي واجبه في تعبئة الفكر والوجدان الشعبي ويساعد على نشر الوعي وتكامله ويؤكد شعراً ونثراً هذه المفاهيم التي تقرّب الأمة العربية من نهاية المأساة :

أولاً : لانهاية للمأساة بدون أن ينتظم العرب في دولة واحدة ، وتصبح

الشخصية العربية موحدة غير مجزأة إلى مصري وسوري وفلسطيني وعراقي وسوداني واردني وحجازي ويمني ولبناني وتونسي ومراكشي وجزائري الخ...

ثانياً : لانهاية للمأساة بدون إقامة مجتمع عربي متماسك قادر على حماية نفسه من الاستعمار والخيانات الداخلية .

ثالثاً : لانهاية للمأساة بدون اعتمادنا على أنفسنا وإيماننا بسياسة الحياد إيماناً قاطعاً ، فقد خذلنا المعسكران معاً وأقاما دولة اسرائيل على جثتنا .

رابعاً : لانهاية للمأساة بدون تعميق روح النضال في الجماهير العربية وتعبئتها عسكريا وخلقياً وروحياً ووجدانياً لمعركتنا الفاصلة مع اسرائيل .

هذه ينابيع للالتزام في الأدب ، وهي مسئولية على الأديب الشاعر أو الناثر ألا يهرب منها لينطوي على نفسه ويقصر أدبه على ذاته ، وإن للأجيال العربية القادمة أن تحدّد جريمة الأديب العربي الذي يبعثر اليوم طاقته الفنية في موضوعات تعارض المفاهيم السابقة ، فتطيل عمر المأساة وتبعد الفجر المرتقب ! ومن هنا تظهر مسئولية عدد من الادباء والشعراء العرب الذين يتاجرون بالانحلال وينفثون سمومهم الجنسية دون وازع ، ويسكبون في أعصاب الشباب العربي نار الشهوة بقصائدهم المفضوحة العارية ، وقصصهم المكشوفة . ولا ريب في أن إقبال الشباب العربي على قراءة أدب التميّع والشهوة دليلٌ على وَهنٍ خلقي في صفوفه ، وضمورٍ مخيف للاحساس بالخطر الجاثم على حدودنا ، وتناسٍ للمأساة التي لاتزال تعيش أمتنا العربية في ليلها المظلم !

* * *

أيها السادة

هذه هي أهم آثار المأساة في الشعر المعاصر – كما تبدو لي – ويمكننا أن

نلمس نقاطا أخرى من تأثير المأساة الفلسطينية في الشعر العربي المعاصر اذا درسنا **القصة الشعرية في شعر النكبة** ، ونجد لها نماذج كثيرة رائعة حقاً في دواوين ابراهيم طوقان واخته فدوى وسلمى الخضراء الجيوسي ويوسف الخطيب وامين شنّار وهارون هاشم رشيد وغيرهم ؛ ونلمس تأثيراً آخر لمأساة فلسطين في **كثرة الشعر الذي يُغنّى به** ، فالمذياع يردد كل أيام أغنيات رائعة نظمها المأساة بلسان أبي سلمى وحسن البحيري وهارون هاشم رشيد وأخيه علي هاشم رشيد وسليمان العيسى ويوسف الخطيب وغيرهم ! ولو كان الوقت يتسع لأوردت نماذج من روائع قصص المأساة الشعرية وأغانيها ، ولكنني أكتفي بالقصة الشعرية التي قدمها لنا قبل قليل نزار القباني (قصة راشيل شوارزنبرغ) وأما الأغنيات فالمذياع في كل بيت كفيل بتقديم الكثير لمن شاء منها ..

* * *

أيها السادة :

وأقدم لكم الآن نماذج من أجمل الشعر المعاصر ، تحكي لكم مشاهد متنوعة من مأساة فلسطين ، وتبرز لأعيننا جملة الآثار التي تركتها النكبة في الشعر العربي المعاصر :

١ ــ الفدائي و الشهيد

صورتان من صور المأساة قبل التقسيم ، رسمتها ريشة شاعر فلسطين الأكبر ابراهيم طوقان ، وغايته أن ينفخ في عرب فلسطين روح المقاومة والفداء والتضحية ، فالفدائي :

صامت لو تكلما ... لفظ النار والدما
قل لمن عاب صمته ... خُلق الحزم أبكما

وأخو الحزم لم تزل يــده تسبق الفما
لاتلوموه قد رأى منهج الحق مظلما
وبـلاداً أحبها ركنها قد تهدّما
وخصوماً ببغيهم ضجت الأرض والسما

هو بالباب واقف والردى منه خائف
فاهدئي ياعواصف خجلاً من شجاعته !

حتى إذا سقط الفدائي شهيداً ، ترك في أمته شعلة لاتنطفىء :

عبس الخطب فابتسم وطغى الهول فاقتحم
رابط الجأش والنهى ثابتَ القلب والقدم
نفسه طوع همــةٍ وجمت دونها الهمم
وهي من عنصر الفدا ءِ ومن جوهر الكرم
لم يشيَّع بدمعة من حبيب ولا سكن
وربمــا أدرج الترا ب سليباً من الكفن
لاتقل أين جسمه واسمه في فم الزمن
أرسل النور في العيو نِ فما تعرف الوسن

٢ ــ الغراب الغازي

صورة رمزية يكشّف فيها الشاعر المهجري جورج صيدح تجربة قاسية من تجارب المأساة ، يوم راحت الجيوش العربية المغرّرُ بها تخوض معركة القدر بدون سلاح ! ولقد تناول الشاعر التجربة من زاوية فنية ووجدانية تتمثل في غراب يقتحم على الشاعر غرفتـه في بحمدون ، فيخيّل له أن الغراب الغازي قادمٌ من اسرائيل :

تطيّرتُ من ناعبٍ في الصباحْ   دخيـلٍ على مِهرجان السنا
مغـير يمزّق شمـل الرياح   إذا دافعتـه عن المجتنى
غمامـة غمٍ تـُجاهَ البطـاح   ورايـة شؤمٍ على المنحنى
تَقززُ منه عيون الأقاح   وتـُطبق أجفانـَهـا إن دنا
تسرّب في غرفتي واستراح   فسّرب منـه إليّ العنا
كأني اعتزلت حيـاة المراح   خصيصاً لأخلو بـه ههنـا
خلا الجو من هينمات الصداح   وحلّ النعيق محـل الغنـا
أتأبى جوار الغُراب الوقاح   عِجافُ الطيور وأرضى أنا
ومن أنبأ الطير أن اجتياح   مُقامىَ أيسرُ مافي الدنى

وأن انتسابي إلى يعربٍ
يحلل مأوايَ للأجنبى!

وأني أهـدده بالفنـا   بكفي، وكفي خلت من سلاح!

أضيفَ الهنا أن بيتي المباحْ   صغيرٌ يضيق بضيف الهنـا
وزادي ـ أعيذك منه ـ جراحْ   أغمّس فيهـا فـُتات الضنى
شهرتُ عليك لساني الصراح   فأعيا، أأطول منـه القنـا
سألتك بعـد الغدوّ الرواح   عسى البينُ يُصلح مابيننـا
وماضرّ لوزرت (تلّ) السفاح   وعششتَ بـين وكور الخنـا
هنالك سِربُكَ يجني الرّباح   ولا يُسأل اللص عمـا جنى
كرهتُكَ ضيفاً دجىّ الوشاحْ   دجىٌّ الحواشي دجيٌّ المنى
إذا وصفتك القوافي الفصاح   دعوت عليهـا بأن ترطـُنـا
تسيءُ وأنت طليق السراح   ويرزح بالقيـد من أحسنا

أحلتُ عليك النسور الغضـابْ
ولكن . . حسدتـُك يا بن التراب

تزود الأعالي وأبقى هنـا   فعندك ماليس عندي ـ سلاحٌ !

٣ ـ العندليب المهاجر

صورة تنبض بالحياة والحنين إلى الوطن المغصوب ، فقد كان الشاعر يوسف الخطيب لاجئاً في دمشق عندما رأى عندليباً مقبلاً من الجنوب ، مهاجراً مثله من فلسطين :

أتراكَ مثـلي يارفيقُ تمرّ في الزمنِ
عـبرَ المهالك والليالي السود والمحنِ
لكأنّ في عينيك بعضَ اللمح من وطني

وأكاد ألمح في وجومك لون مأساتي
جرحي ، وملحمتي ، وتشريدي وآهاتي

بيَ لهفةٌ ياصاحبي مشبوبةُ النـــارِ
هل بعضُ أخبارٍ تحدّثها ، وأسرارِ
للظامئين على متـــاهِ الوحشةِ العـاري
. . كيف الحقولُ تركتها في عرس آذار
ومتى لويت جناحك الزاهي عن الدار
عجباً ! تُراكَ أتيتنا من غير تَذكارِ !

لو قَشةٌ ممّـا يرفّ ببيـــدر البلدِ
خبأتَها بـين الجناح وخفقة الكبدِ
لو رملتان من المثلث ، أو رُبا صفدِ

لو عُشبة بيدٍ ، ومِزقة سوسنٍ بيـــدِ
أين الهدايا مذ برحت مرابعَ الرغـدِ
أم جئت مثلي بالحنين وسَوْرَة الكمدِ

ماذا رحيلُكَ أيهـا المتشرّد الباكي
عن أرض غابات الجبالِ وفوحها الزاكي
أم أنّ مرج الزهر أصبح قفرَ أشواك
وتلوّنت أنهارهـا بنجيـــع سفّاك
داري ، وفي عينيّ والشفتين نجواكِ
لا كنتُ نسل عروبتي إن كنت أنساك !

٤ — بعد عشر سنين

صرخة رائعة للشاعر أبي سلمى يذكّر فيها بدماء فلسطين الشهيدة عنـدما لاح أول شعاع من شمس الوحدة العربية بقيام الجمهورية العربية المتحدة :

يارفاقي جبـل النار دعانا — الهوى هذا الذي هبّ هوانا
والنسمات التي مرّت بنـا — حملت من أرض حطّينَ شذانا
وعلى كل طريقٍ عَبَقٌ — من صبانا وشُعاعٌ من دمانا
وإذا ما لفظت أهلي الربا — هتفت من خلل الدمع رُبانا
أيُّ سفحٍ لم يسر فيه لظىً — من فلسطين ولم يعرف سُرانا
أيّ شعب خفقت أعلامـه — حرةً إلا على دامي خطانا

باسم أطفال بلادي زحفوا — في الدروب الحُمر ذلاً وهوانا
بالضحايا كتبوا تاريخنا — بالخيامِ السودِ تبكيهم زمانا

باسم أهلي في بقايا وطني ... باسمهم في طرق البؤس حزانى
باسمهم في كل أرض مكثوا ... شاهداً قد صبّه الظلم عيانا
واسمهم يهدر في شعري دماً ... ودموعاً وسعيراً ودخانا
باسمهم نقسم ألاّ نلتقي ... في غد إلا على طهر ثرانا

يافلسطين مضت عشرٌ وفي ... كل يوم يسمع الدهر ندانا
وأتينا واللظى يحرقنا ... عرباً قلباً ووجهاً ولسانا
ياأحبايَ مضت عشرٌ ولم ... تلثم التُرب المفدّى شفتانا
وشظايانا اللواتي وحّدت ... بين أهلينا ولم يبق سوانا
لن تتمّ الوحدة الكبرى إذا ... لم يلحْ في الوحدة الكبرى حمانا

* * *

أيها السادة

بهذه الصفحات المختارة من الديوان الدموي الضخم الذي منحته مأساة فلسطين للأدب المعاصر نصل الى نهاية الحديث ، غير أن ملحمة الدم في فلسطين تظل بلا نهاية ، فالدم العربي المظلوم المطلول فوق تربة فلسطين يزأر ليل نهار يدعو العرب الى الثأر ليخطوا خاتمة مشرفة لمأساتهم القومية العظمى

إن ليل المأساة ينتظر الفجر ، وإنه لقريب ، وقد لاحت تباشيره بقيام الجمهورية العربية المتحدة ، ولئن كان (ابن غوريون) يعترف في (الكنيست) بأن اليهود اعتمدوا في اقامة إسرائيل على الجيش ٢,٥ في المائة و٩٧,٥ في المائة على السياسة ،فان الجمهورية العربية المتحدة تملك اليوم ـ بحمد الله ـ الجيش العربي العظيم الذي يمحو جيش اسرائيل ، كما تملك القائد السياسي الذي يلقف بدهائه كل باطل للسياسة الاسرائيلية فيشله ،ويوم يقود هذا القائد الناصر المظفر جيش العرب الى تلال حطين ويقذف بالغزاة المعتدين الى البحر سيغنّي له الشعر العربي المعاصر

أجمل أغاني المأساة وأروعها ،وتتحقق بذلك نبوءة الشاعر القديم ابن مطروح :

المسجد الأقصى له عادةٌ سارتْ فصارت مثلاً سائرا
إذا غدا للكفر مستوطَناً أن يبعث الله له ناصرا
فناصرٌ طهّره أولاً وناصرٌ طهره آخرا [1]

والسلام عليكم

أهم مصادر البحث

١ ـ في شعر النكبة : للدكتور صالح الاشتر
٢ ـ أدب الحروب الصليبية : للدكتور عبد اللطيف حمزة
٣ ـ النكبة والبناء : للدكتور وليد قمحاوي
٤ ـ طبيعة الفن ومسئولية الفنان : للدكتور محمد النويهي
٥ ـ الأدب الهادف : للأستاذ محمود تيمور
٦ ـ مقدمة ابن خلدون
٧ ـ تاريخ ابن الأثير
٨ ـ دواوين الشعراء الذين ذُكرت أسماؤهم في البحث
٩ ـ مجلاّت : الثقافة العربية (عدد ممتاز عن فلسطين) والثقافة (الدمشقية) والآداب والأديب والعالم الاسلامي ومجلة العربي الخ ...

---

(١) ـ الناصر الأول هو صلاح الدين الأيوبي ، والناصر الآخر هو داود صاحب الكرك الملقب بالملك الناصر .

الفهرس

للمؤلف

- في شعر النكبة

« بحث تخطيطي في اصداء نكبة فلسطين في الشعر العربي المعاصر »

(مطبعة جامعة دمشق ١٩٦٠)

- أندلسيات شوقي

« بحث تطبيقي في أدب شوقي في المنفى وأثر الأندلس في شخصيته وفنه »

(مطبعة جامعة دمشق ١٩٥٩)

- أخبار البحتري

لأبي بكر الصولي

« تحقيق الكتاب ونشره لأول مرة »

(مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق ١٩٥٨)

- إعتاب الكتّاب

لأبي عبد الله بن الأبّار

« تحقيق الكتاب ونشره لأول مرة »

(مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق ـ تحت الطبع)